
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الهادي التيمومي

الغائب في "العمران البشري" الخلدوني

تونس، دار محمد علي للنشر، 2007. 120 صفحة

إن هذا الكتاب الذي نقدّمه هو للهادي التيمومي أستاذ التاريخ المعاصر في جامعة تونس. وقد صدر هذا المؤلف عن دار محمد علي للنشر، في طبعته الأولى، سنة 2007. ويكتسي هذا الكتاب أهمية واضحة لأنه يتناول مراحل دقيقة وحاسمه من تطور المغرب العربي بالاعتماد على القراءة الخلدونية، سواء تعلّق الأمر بالمقدّمة أو بديوان العبر. وقد رصد المؤلف في الجزء الأول حول ابن خلدون درجة اهتمام هذا المؤرخ بالبعد الاقتصادي وتركيزه عليه في فهم التاريخ المغاربي إلى درجة أنه يقترب، على حد رأي المؤلف، من القراءة الماركسية. كما بين المؤلف أن ابن خلدون اكتشف حقائق اقتصادية مهمّة تشبه ما توصل إليه الاقتصاديون الكلاسكيون. وبناء على مختلف النتائج الاقتصادية التاريخية، توصّل الهادي التيمومي إلى أن ذلك دالّ عمليّا على وجود نمط إنتاج جديد تشكل على أنقاض العبودية. فالاستعانة بابن خلدون ساعدت المؤلف على أن يشرعن الفكرة القائلة بوجود ما يسميه **نمط الإنتاج المخامسي**. وهو يعد المبحث المركزي الذي جمّع مختلف دراسات هذا الكتاب. فهو يعتبر أنّ ابن خلدون من أوائل الذين قدّموا المؤشرات الأولى على وجود نمط الإنتاج المخامسي. كما أشار كذلك إلى أن انهيار المغرب العربي اقتصاديا وزراعيا لا يعود إلى الهجرات الهلالية القادمة من مصر، وهو رأي يتضمن نوعا من التجني وعدم الموضوعية التاريخية. فحالات الفقر والمجاعة والأمراض والأوبئة هي حالات مرافقة لتاريخ المغرب العربي في مختلف مفاصله ومراحله، وليست مرتبطة بالهجرة الهلالية. ومن ثمة، فنمط الإنتاج المخامسي هو دليل على ما وصل إليه المغرب العربي من انحطاط اقتصادي ومن تدهور اجتماعي وإنتاجي مريع ومن احتياج فاق كل التوقعات. ولذلك تتشكل مجموعات بشرية كثيفة العدد ومفصولة عن وسائل الإنتاج الأمر الذي يدعوها إلى القبول بنظام الإنتاج الجديد الذي يصفه المؤلف بنعت المخامسي، عن قصد، ليشير إلى هشاشة هذه الفئات وقبولها اضطرارا، العمل في مثل هذه الظروف. فالخماسة كما يعرفها المؤلف عقد كتابي أو شفوي بين صاحب الأرض وبين العامل الذي يمتلك قوة بدنه الأمر الذي يطبع العلاقة بكثير من الاختلال ومن الاستغلال. كما تطرّق الباحث إلى طبيعة العلاقة الوثيقة القائمة بين العمران البدوي من جهة وبين نمط الإنتاج المخامسي من جهة أخرى الذي

يبرهن على حدّ تعبيره على أنّ المقدمة تحفل بإشارات يمكن تأويلها، عمليا، في اتجاه إثبات مثل هذا النمط الإنتاجي. كما تجدر الإشارة إلى أن المؤلف خصص الفصل الثالث من كتابه ليناقش عددا من الباحثين والمفكرين الأجانب والعرب وخاصة المغاربيين حول توصيفهم لنمط الإنتاج في منطقة المغرب العربي ويصل في النهاية إلى إثبات محدودية نمط الإنتاج الآسيوي والإيتاوي والمبني على الغزو.

ومن أجل تدعيم فكرته القائلة بوجود نمط الإنتاج المخامسي، فقد استعرض المؤلف مراحل طويلة من تاريخ المجتمع التونسي لينتقي منها على وجه التحديد شواهد عديدة وأدلة كثيفة ومتكررة على أن الإنتاج المخامسي كان سائدا سواء في إفريقية أو في المغرب العربي. وهو يخلص في الفصل الخامس والآخير إلى أن المغرب العربي بقي تاريخيا كسيحا ولم تمهله المجاعات والأوبئة والتوترات السياسية الكثيفة لكي يتقدم اجتماعيّا ويتقدم معه نمط الإنتاج المخامسي. كما يخلص المؤلف إلى أن هذا النمط من الإنتاج بقي كسيحا ومحدودا بحكم طبيعته الرخوة وعدم قدرته على التطور اللاحق بدليل التآكل السريع لإيجابياته وعدم قدرته على توليد واقع اقتصادي وإنتاجي جديد يتسم بالإيجابية.

فالخلاصة إذا، هي، أن نمط الإنتاج المخامسي ولد متعثرا على حد تعبير المؤلّف ولم تمهله الظروف البنيوية، التاريخية منها والاقتصادية الوقت كي يتطور. فقد انعكست حالة الانهيار الشامل التي كانت تعيشها مجتمعات المغرب العربي على هذا النمط الإنتاجي. كما تعمقت المأساة مع الضربة القاضية التي تعرض لها نمط الإنتاج المخامسي حينما بدأت مرحلة نمط الإنتاج الرأسمالي في التشكل وفي الهيمنة تدريجيا على بقية الفضاءات الأخرى وفي مقدمتها أسواق منطقة المغرب العربي. ويمكن أن نختم هذا التقديم السريع لكتاب "الغائب في تأويلات العمران البشري الخلدوني" بالإشارة إلى سؤالين إثنين :

– ألا يعتبر القول بأن الإيماءات الاقتصادية الواردة عند ابن خلدون يمكن ان تبرّر، حتى ولو جزئيا، فكرة نمط الإنتاج المخامسي قولا قابلا للنقاش ؟

– ألا يعد ذلك تأويلا يتضمن بعض القسوة في عملية تفسير المتن الخلدوني من خلال طرح أسئلة حديثة على نصوص قديمة أنتجت وفق ثقافة عصرها ومعارف مجتمعها ومحدداته المعرفيّة والثقافية والذهنية ؟

المنصف وناس